"المضمر"

في القصص القرآني مثال من رحلة موسى عليه السلام مع العبد الصالح

الأستاذ الدكتور
صاحب جعفر أبو جناح
الجامعة المستنصرية

"المضمر" في القصص القرآني مثال من رحلة موسى عليه السلام مع العبد الصالح

الأستاذ الدكتور
صاحب جعفر أبو جناح
الجامعة المستنصرية

يكاد مدلول "المضمر" يقترب من دلالة "المفهوم" المقابل عند المناطقة والأصوليين لمصطلح "المنطوق" الشاخص في الألفاظ الصادرة عن المتكلّم أو المرسل، فهو ليس العنصر النحوي المحذوف من مكوّنات الجملة مما تتناولته مباحث النحويين في أبواب الدرس النحوي بعامّة، أو مباحث المفسّرين والبلاغيين عند خوضهم في تحليل النصوص التي يتخّذونها مادة لدراستهم، بل هو وسيلة إبلاغية غير لغوية تعتمد عناصر مجرّدة أو أفكارا مجرّدة، يمكن أن يعبّر عنها بصيغ مختلفة، بل بلغات مختلفة، وهي تتّكىء على مبدأ الاقتصاد اللغوي القائم على ما يصطلح عليه أحيانا بـ" "الإيجاز" أو "الاكتفاء" أو "الصقل "أو "الثقاف".

و"الإضمار" بهذا المعنى- الذي يتخّذ فيه مظهر" الثّقاف"بحسب تعبير الخطّابي الذي يرى بحقّ أنّه: لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه بعضا - يلتقي مع مدلول"الاكتفاء" أو "الاستغناء" الذي يصادفنا عرضا في صورة عفوية عند النحويين الأوائل المنشغلين بتحليل الأمثلة بالتساوق مع استنباط قواعد اللغة، من غير أن يتوقفوا عنده ويفردوا له مباحث خاصة تستقل بعنوان خاص على نحو ما فعلوا في أبواب الحذف ومباحثه المتناثرة في جملة أبواب النحو الرئيسة وكذلك مباحث البلاغيين والمصنّفين في علوم القرآن. ربّما يكمن سبب ذلك في أنّ النحويين كانوا منشغلين بتحليل الجملة ومكوناتها وما يتصل بها لا بتحليل النصّ بمجموعه، وهم، حتّى في تعرّضهم للشواهد الشعريّة وللآيات القرآنية في مصنّفاتهم التي يحتذي بعضها حذو بعض بحكم الطابع التعليميّ الذي كان شاغلهم الرئيس، لم يكن يعنيهم منها إلّا موضع الاستشهاد الذي يشكّل

بؤرة الاهتمام عندهم

وتعدّ "الافتراضات"و"المضمّنات" المعبّرة عن محتوى"المفهوم" أو "المضمر" أو "الثقاف"بمثابة المعلومات"المدسوسة خفية" بحسب عبارة كاترين أركيوني، أي أنّها تكون مزوّدة بملاءمة تواصليّة أقلّ شأنا من تلك التي تمتّع بها المعلومات البيّنة، كما أنّها تحتلّ مركزا أدنى مرتبة داخل البنية التي يتألّف منها محتوى الأقوال الإجمالي[1].

وإذا كان الأصوليّون قد شغلوا في مباحثهم، وهم في صدد البحث عن أدلّة الحكم الفقهي، بقضية "المنطوق" و"المفهوم" في النصّ القرآني، وقراءته في ضوء مفهومه لا في ضوء منطوقه فحسب، بهدف استيعاب كلّ مقاصده وحيثيّاته، يكون من المناسب في مجال الاشتغال الأسلوبي أن يتّجه البحث عن "المفهوم" أيضا إلى النصّ السردي القرآني وقد صيغ، كما يتّضح للمتأمل، بعناية دقيقة وثقاف مستحكم في كلّ مفاصله التي أريد بها استلهام حكمة الواقعة مع تكثيف المكوّن اللفظي، انسجاما مع ما اتّسمت به عبارته، في جملتها، من الاقتصاد اللفظي الإيمائي، في مقابل سعة المعاني التي اكتنزتها ألفاظه المرصوفة بدقة إعجازية متناهية، فصحّ فيه قول من قال بأنّه "جمع فأوعى".

ومن منطلق الوعي بأنّ ألفاظ القرآن في رصفها منقادة لدلالته نحاول في هذا المبحث أن نتحرّى صورا من مكوّنات "مفهوم" هذا النصّ، مما يرد في "منطوقه" في سرد الواقعة القصصية أو الحكائية، بحكم أنه ميدان رحب لإضمار مفاصل حيوية من هيكل المكوّن السرديّ، وذلك اتّكالا على وعي المتلقّي سياق توالي الأحداث المسكوت عنها، وتكثيفا لمادّة الحكاية بهدف تحقيق الأثر الإبلاغي، وكأنّ ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، على حدّ قول عبد القاهر الجرجاني[2].

فإذا سايرنا مقولة أنّ الإضمار، وكذلك الحذف، هو استبدال بقيمة الصفر

خطياً (لفظا) لاذهنيا، سيكون اكتشاف القيمة المضمرة من مهمّة المتلقّي الذي سيكوّن نصّا جديدا غير النصّ المرويّ، من دون أن يتقاطع معه. فالمتلقّي الذي تبوّأ موضعا محوريّا في عمليّة تلقّي النصّ القرآني، بصفته طرفا أساسا في المخاطبة، وكذلك في إيضاح أو كشف العلاقة بين الدالّ والمدلول، وهي في مجال النصّ القرآني حاملة لأوجه عدّة، وبحكم أنّ الخطاب القرآني متوجّه إليه منذ اللحظات الأولى التي حمله ر الأمم السلفة المشاهد الكونيّة التي نوّه بها الخطاب القرآني، فسيكمل هذا المتلقّي بناء النصّ وإشغال فجواته، وإعادة مكوّناته، في ضوء وعيه وثقافته وموسوعيّته المعرفيّة، لاسيّما مؤهّله اللغويّ الذي لاينفصل عن عوالم الدّلالة الفسيحة، وهذا ما نلقاه فيما ينسب لابن عبّاس وأبيّ بن كعب وابن مسعود وكعب الأحبار والحسن البصريّ ومجاهد بن جبر وسواهم من أهل التأويل، ممن كانوا معنيّين بأخبار الأمم السالفة والديانات السماوية المجاورة لهم.

إن ما يترتّب على اختلاف حالات التلقّي من تباين القراءات وتعدّد التفسيرات يؤكّد مقولة أنّ اللغة ليست وسيطا شفافا بين اللفظ والمعنى، أو بين الباثّ والمتلقّي[٣] الأمر الذي نواجهه في مباحث أصحاب "الوجوه والنظائر، أو الأشباه والنظائر "أو المفسّرين في صورة تعدّد تفسيرات النصّ أو حتّى المفردة الواحدة في سياقاتها المتعدّدة أو في سياق واحد غير متكرّر.

ولاريب أنّ القراءة ستكون أفضل وأكثر سدادا كلّما أخذت بالحسبان عددا أكبر من العناصر الدالّة، أي أنّها لا تغفل أبدا عن هذه العناصر، لتكون بلا نزاع أعلى شأنا من تلك التي تشذّب النصّ أو تمرّ عليه بلا تمعّن[٤] على نحو ما نجد من تفسير لفظي صرف للنصوص بمقتضى ما تصرّح به الدّلالة المعجميّة القريبة التناول، بعيداً عن السياق الذي ورد فيه وتولّد بمقتضاه. فالقراءة تتحسّن أكثر فأكثر كّما كانت عملية إعادة البناء التي تفضي إليها أكثر تماسكا، فهي تصبح أفضل بكثير كلّما احتوت على المزيد من المعلومات الصحيحة، سواء كانت خارج

النص أم مضمّنة فيه. وهو مايتحقّق عندما يكون القاريء أكثر اطّلاعا وأفضل معرفة بظروف إنتاج النصّ ومناسبته[٥] الأمر الذي نجد مصداقيته في عبارة ابن جني المتبصّرة: فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين، مجزئا عنه، لما تكلّف القائل(الباثّ) ولا كلّف صاحبه (المتلقّي) الإقبال عليه، والإصغاء إليه[٦] وهو يعني أنّ ما توحي به الملامح وتعبيرات الوجه ونبرات الصوت وتنغيمه _مما يدعونه في المصطلح اللساني المعاصر "ما وراء اللغة - يشكل ركنا أساسا في عملية الأداء والإبلاغ، الأمر الذي أفصح عنه بمهارة قول الشاعر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من العداوة أو ودّ إذا كانا

وقول العرب أيضا في هذا المعنى: ربّ إشارة أبلغ من عبارة.

و"ما وراء اللغة "هذا الذي يسهم في تشكيل الدلالة على نحو فعّال، تبسّط في التنويه به ابن جنّي في عبارته المفصحة: وقد قيل: ليس المخبر كالمعاين...وبعد فالحمّالون والحمّاميون والسّاسة والوقّادون ومن يليهم ويعتدّ منهم، يستوضحون من مشاهدة الأحوال ما لا يحصّله أبو عمرو من شعر الفرزدق إذا أخبر به عنه، ولم يحضره ينشده..."[٧].

وكذلك نجد فحوى نظريّة ابن جنّي هذه في ما آلت إليه مناظرات رواة اللغة بشأن التحقّق من مقاصد الشعراء في عدد من أبياتهم التي كانت موضع جدل بين هؤلاء النقلة، مما نقلته كتب الأمالي والأخبار والمجالس[٨].

ومع ذلك لا يسعنا الاتفاق دائماً، كما تقول أركيوني، مع من يذهب مبالغا إلى أنّ معنى القول ليس شيئا موجودا في القول من حيث الأصل، ولا حتّى إنّه معنى أودعه المتكّلم فيه فعلا، بل إنّه ما يخيّل إلى المحاور أن المتكلّم رمى إليه في هذا القول أومن خلاله[٩]. ربّما يجد من يتقبّل هذا النظر مثالا له في تعدّد التفسيرات لعبارة واحدة، على نحو ما نجد في أقوال المفسّرين لمعنى مفردة (الخزي) الواردة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (آل عمران ١٩٢).

فهي عند الزجّاج: الإلزام بحجّة يذلّ معها، أو الإبعاد، والمخزى في اللغة: المذلّ المحقور بأمر قد لزمه بحجّة، وكذلك أخزيته[١٠]. وعند غير الزجاج: الإهانة ويفسّرها شمر بالفضيحة، وعند المفضّل: (الهلاك) وعند الأنباري: الهلاك بتلف أو انقطاع حجة أو بوقوع في بلاء. وعند ابن عطية: الفضيحة المخجلة الهادمة لقدر المرء، ومثله عند الزمخشري والمعجم الوسيط[١١].

ففي هذا المثال، وأشباهه كثير في النص القرآني والشعر العربي القديم مما تتنوّع فيه أطياف المعنى وتتنوّع ملامحه، ما يعزّز القول بأنّ معنى النصّ هو ما يخيّل الى المتلقّي، بحكم معرفته اللغويّة وتحصيله، أنّ الباثّ رمى إليه في نصّ القول أو من خلاله. وعلى مستوى آخر قد يكون في مقولة الإمام عليّ عليه السلام لابن عباس: "القرآن حمّال أوجه" وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران ٧) تعزيز لمذهب تعدّد المقاصد أو الدّلالات في القول الواحد، أو إمكانيّة تعدّد التفسيرات للعبارة الواحدة، أو للمفردة الواحدة، ولاسيّما إذا تعلّق القول بمفهوم غير حسّي، اجتماعي أو نفسي أو قيمي أخلاقي يمتدّ على رقعة فسيحة من الدلالات، على نحو ما وجدناه في تفسير مفهوم (الخزي).

ونحن لانريد أن نقف في هذا الميدان الشاسع المتمحور حول دلالة المفردة أو العبارة القرآنية المحتملة لتعدّد الأوجه التأويلية، بل نريد أن نتّأمل بعض صور هذا "المضمر" أو المسكوت عنه، أو المكتفى عنه بملازماته القولية المصرح بها، وذلك في نماذج من السرد الحكائي القصصي لأخبار الرسل عليهم السلام...ولعلّ حكاية موسى عليه السلام مع العبد الصالح[١٢] صورة بيّنة لأنموذج "الثقاف" الذي صيغت به هذه القصة مثلما صيغت به مثيلاتها من القصص القرآني البليغ.

ففي قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح يجري سرد الأحداث على نحو بالغ التكثيف والإيجاز - على نحو ما نجد في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ وقصة يوسف عليه السلام وقصة أهل الكهف ومريم عليها السلام وسواها من القصص القرآني - يقتضي

المتأمّل أن يملأ فجواته المتوارية عن القارئ العابر للنصّ، تحت وقع تماسكه وترابط مكوّناته السردية، التي تمثّل سمة بيّنة ملازمة لتقاليد القصص القرآني.

فإنّ الذي ينحو المنحى التقليدي في البحث عن سياق الأحداث يمكنه أن يملأ هذه الفجوات غير المنظورة في ظاهر النص، على طريقة المفسّرين، بما يقتضيه منطق الأحداث السرديّة وتتابعها المألوف في الوقائع المعتادة، مما نجده لدى بعض المفسّرين في محاولاتهم ملء هذه الفجوات بمعلومات من خارج النصّ، ترفدهم بها مصادر إخبارية من أهل الديانات السماوية والمتابعين لقصص التاريخ وحوادث الأنبياء وسيرهم الأولى، بغضّ النظر عن موثوقية هذه الأخبار وصحّة وقوعها.

ولبيان هذا التصوّر عن المكوّنات المسكوت عنها من مفاصل الواقعة القصصية نسوق النص القرآني مع العبارات التي يفترض أنّها من مقتضيات توالي الأحداث السرديّة أو السياقات، على شاكلة ما ينحوه بعض أهل التفسيرمثل ابن عطية والزمخشري والطبرسي وسواهم. مع وضع "النصّ القرآني "،بين قوسين ليكون منفصلا عن ألفاظ الأحداث السردية المحتملة.

(و) اذكر يا رسول الله لقومك، ممّن يريد أن يعتبر بسير الحكماء وتعلّم الحكمة منهم، وجوابا لمن سأل من مشركي مكّة أو من حرّضهم من يهود يثرب بغية إحراج النبي ﷺ أو اختبار معرفته الغيب من أخبار الأمم السالفة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون، وقد كنّى عنه القرآن بلفظة فتى من غير أن يسمّيه على ما جرى عليه في مواضع أخرى من نحو "فتيان وفتيانه "في سورة يوسف و"امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون وامرأة العزيز ونساء النبيّ وأزواجك " في سور أخرى لحكمة اجتماعية أو أسلوبية ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أسير في رحلتي هذه، "بمحاذاة البحر أو في مكان آخر، في روايات أخرى، تشير إلى بحور في بلاد فارس أو بلاد الروم "

﴿حَتَّى أَبْلُغَ﴾ في سيري ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ لألقي ذلك الرجل الذي أريد أن أتعلّم منه بحسب وصية ما أوصاني به الرب تعالى. "وذلك أن موسى سأل ربّه بعد أن تلقّى الألواح ورأى أنّ علمه لا يضاهيه فيه رجل آخر: يا ربّ هل في الأرض من هو أعلم مني؟ فقال له تعالى: من هو أعلم منك عبد من عبادنا منقطع للعبادة عند مجمع البحرين فامض إليه لتتعلم مما عنده." ﴿أَوْ أَمْضِيَ﴾ في السير ﴿حُقُبًا﴾ لا يعلمها إلا الله، حتى أقف على خبر الرجل الحكيم. فمضيا في سيرهما ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ وقد بلغ بهما عناء الرحلة مبلغه جلسا يستريحان وأخذت موسى غفوة التعب وشغل الفتى بشأنه فـ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ فدبّت الحياة فيه وقفز من المكتل الذي كان فيه إلى الأرض ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ بواقعة إعجازية ولحكمة إلهية ليكون دالّا على الموضع الذي فيه صومعة العبد الصالح حسبما أوحي به إلى موسى. وحين استأنفا السير بعد الاستراحة وقطعا مسافة غير قصيرة و﴿جَاوَزَا﴾ ذلك المكان الذي نسيا فيه حوتهما برّح بهما الجوع فـ(قال موسى لفتاه) يوشع بن نون ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ الذي أعددناه لرحلتنا ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (قال) الفتى يوشع، متذكّرا بدهشة ما وقع للحوت من عودة للحياة وجريه إلى البحر، وما وقع له من نسيانه وكتمان خبره عن موسى ساعة ذاك، متوقعا من سيّده التقريع والتأنيب: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا سيدي ﴿إِذْ أَوَيْنَا﴾ في استراحتنا (إلى ظل (الصخرة) وانشغلنا بحديث السفر ومشاغله ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ عند المكان عينه ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ﴾ ساعة ذاك ﴿إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ الذي شغل بغواية الناس، فألهاني عن ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ مع حاجتنا إليه في هذه الرحلة المضنية ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ على نحو غير مألوف ممّا يثير في النفس ﴿عَجَبًا﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى مندهشا من المفاجأة التي كان يتوقّعها بوحي سابق من الله، وهي إشارة إلى مكان العبد الصالح، ولكنّه لم يكن يعلم توقيتها، ﴿ذَلِكَ﴾

المكان بعينه ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ قصده، وهو موضع التقاء البحرين. فأشار الى فتاه بالتأهب للعودة إلى المكان نفسه الذي نسيا فيه الحوت، بعد أن تناولا ما عندهما من ميسور الطعام ﴿فَارْتَدَّا﴾ راجعين ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ من حيث جاءا في طريق الرحلة، يقصّان الآثار نفسها ﴿قَصَصًا﴾، وحين بلغا المكان الذي نسيا فيه الحوت تفقداه وتحرّيا مواضعه ﴿فَوَجَدَا﴾ فيه غايتهما ﴿عَبْدًا﴾ حكيما متألّها ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ أهل العرفان والكرامات، متفرّغا للعبادة والتأمّل، أخبر عنه الله تعالى بأنّه ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً﴾ على خلوته واعتزاله الناس وسياحته في الآفاق متأمّلا آثار خلق الله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ من الحكمة الإلهية العالية والعلم اللدنّي ومعرفة الحقائق والمصائر ﴿عِلْمًا﴾ واسعا متعاليا ربّانيا. فلما رآه موسى حيّاه وحاوره وأيقن من شواهد حاله أنّه الرجل المأمور بقصده والرحلة إليه وتعلّم ما عنده من الحكمة ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ بتواضع وأدب وبلغة طالب العلم والحكمة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أيها الحكيم المتألّه ﴿عَلَىٰ أَنْ﴾ تتفضّل عليّ و﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ من إلهام الله ووحيه إليك ﴿رُشْدًا﴾ أستعين به على اجتياز مسيرة الحياة الشاقّة المضطربة وما ينتظرني من مهمّة قيادة قومي؟ "وهنا ينقطع خبر الفتى المرافق أو يسكت عنه، لأنه لم يعد له دور في مجريات الجانب التعليمي من الرحلة الخاص بموسى عليه السلام".

﴿قَالَ﴾ الحكيم، وهو مقتنع بأنّ طريق الوصول إلى الحكمة المتعالية التي ترفع صاحبها إلى مرتبة إدراك المجهول طريق عسير، ليس في قدرة كل فرد، حتى لو كان من طراز موسى عليه السلام في وقته ذاك الذي كان يتأهل فيه للقيام بدوره في هداية قومه ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ في رحلة الاختبار والمعاناة الشاقة، غير الميسورة لأيّ كان من الناس، ﴿صَبْرًا﴾ ﴿وَكَيْفَ﴾ وأنت الإنسان غير المؤهل بعد، كما يظهر من حالك، ممّن لا يعرف نتائج الوقائع ومآلها، ولاسيّما إذا كانت غريبة غير مألوفة،

﴿تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ من قبل، ممّا تجهل الحكمة من تعاطيه والتعامل معه على النحو غير المألوف الذي ستواجهه؟. ﴿قَالَ﴾ موسى متفائلا، على سبيل الثقة بنفسه، ﴿سَتَجِدُنِي﴾ في رفقتي معك ومفاجآتها وتجارب اختبارك إيّاي على الصبر حتى تظهر عواقب الأحداث ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ معاونتي وتثبيتي ووفقّني إلى بلوغ غايتي ﴿صَابِرًا﴾ على ما نواجهه من وقائع وأحداث، وأعدك بأن ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ مهما رأيت من الغرائب والمفاجآت.